

# بحث في الطبيعة العدوانية للإنسان

محفوظ أبي يعلا  
باحث مغربي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

## الملخص:

يهدف هذا البحث إلى النظر في الطبيعة البشرية وجذورها العدوانية التي تشكل البنية النفسية للإنسان، وذلك من خلال استحضار نظرية فرويد حول النزعات العدوانية للإنسان، ورأي كل من هوبز ومجموعة من الفلاسفة وعلماء النفس.

يبدأ البحث بمقدمة تهدف إلى تبين العلاقة بين الأنا والغير وتوضيحها، ثم يوضح طبيعة الشخص وطبيعة الغير، ويضرب مثلاً للحرب المغربية السونغية كنموذج للنزعة العدوانية للإنسان. ووسط هذا التحليل والنقاش، يسلط الضوء على مشاكل اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية... إلخ، سببها الأساسي والخفي هو الطبيعة العدوانية للإنسان.

وفي الختام، يعطي بعض الحلول الممكنة للسيطرة على النزعات العدوانية، من قبيل الاهتمام أكثر بالتربية وبعلم النفس، وبدعم المؤسسات السياسية والاقتصادية التي من شأنها أن تخفف من عدوانية الإنسان.

"الكل قد زاغوا معاً فسدوا ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد"<sup>1</sup>

## مقدمة:

الغير هو أنا آخر، وهو ذلك الذي ليس هو أنا، ولست أنا هو، معرفتي به مستحيلة، لأنّ بيني وبينه عدم.<sup>2</sup> لذلك، لا يمكن أن أقول عن فلان، إنه طيب أو شرير. ثم إنّ معرفتي بنفسي أنا مستحيلة، فهل أنا شخص طيب مثلاً؟ أو هل أنا إنسان شرير؟

إذن، كيف سأتمكن من معرفة الآخر وأنا نفسي أجهل نفسي؟ وعليه، فهل إذا تمكنت من معرفة نفسي قد أتمكن أيضاً من معرفة الغير؟ ولكن هل معرفتي بنفسي ممكنة؟ وهل هي صائبة تلك الحكمة القديمة التي تقول: "أعرف نفسك بنفسك"؟ ألسنتُ أتفاجأ من نفسي حين أخجل أو حين أغضب، حتى لكأنني أشعر أنني شخص آخر تحرّكه دوافع مجهولة؟ ألسنتُ كلما ظننتُ أنني أعرف نفسي أكتشف أنني أكثر الأشخاص جهلاً بذاتي؟ ثم لو كانت معرفة نفسي ممكنة من دون اللجوء إلى الغير، فما فائدة المحلل النفسي؟ ألسنتُ أذهب إليه حتى يعرفني على نفسي؟ أليس ذلك الغير إذن يستطيع أن يعرفني أكثر مما أعرف أنا نفسي؟ وبالتالي ألسنتُ أستطيع أن أعرفه أكثر مما يعرف هو نفسه؟

وعلى كلّ، دعني أركز على ذلك السؤال القديم، وهو: هل الإنسان خير بطبعه أم شرير؟ الإنسان الذي يجمع الأنا والغير. يمكن أن أتساءل: هل أنا إنسان خير؟ فإذا أجبت بالإيجاب، يمكن أيضاً أن يكون الغير خيراً أيضاً. وأمّا إذا كان الجواب بالنفي، فإنّ كلينا أنا والغير لسنا خيرين. وفي الحالتين، أكون قد اقتربت من معرفة نفسي ومن معرفة الغير.

ولكن لماذا هذا السؤال بالذات؟ لأنّ الإجابة عليه، في نظري، ستمكننا من معرفة أنفسنا ومن معرفة الغير الذي نتقاسم معه الوطن. فالغير هو الرئيس، والغير هو الوزير، وهو رجل الدين، ورجل الأعمال، وهو المواطن... إلخ. وأمّا الشخص فهو أنا، وهو النحن.

ومحاولة لمعالجة هذه الأسئلة التي ذكرتها، سأقسم بحثي إلى ثلاثة أقسام على الشكل التالي:

### 1- في طبيعة الشخص

<sup>1</sup>- المزمور 14، 3

<sup>2</sup>- J.P. Sartre, l'être et le néant. Gallimard, 1943, pp. 285

## 2- العلاقة مع الغير

### 3- الحرب المغربية السونغية نموذجاً لعدوانية الإنسان

ثم سأنتهي بخاتمة للموضوع، أعرض فيها طرق السيطرة على غريزة العدوان في الإنسان.

## 1. في طبيعة الشخص:

إنّ الإنسان هو شخص، وكلمة شخص في اللغة اللاتينية تدلّ على القناع الذي كان يضعه الممثل على وجهه كي يناسب دوره في المسرحية.<sup>3</sup> وبطبيعة الحال، فإنّ هذا القناع لا يمثل الشخص كجوهر وكحقيقة؛ لأنه مجرد مظهر. فالشخص قد يبدو مبتسماً، فنظن أنه سعيد، مع أنه ليس كذلك. وهذا المثال شبيه بقصة البهلوان الذي يبدو مبتسماً من خلال قناعه، غير أنه يبكي دون أن ينتبه أحد.

لهذا، فإنّ الشخص هو مظهر، وهذا ما يتناسب مع المعجم اللغوي العربي. فنجد في القاموس المحيط ما يلي: شخص: بدن وضخم. ونجد في المعجم الوسيط: الشخص هو كلّ جسم له ارتفاع وظهور، وغلب في الإنسان.

وللإنسان طبيعة خاصة تميّزه عن سائر الكائنات؛ فهو يتمتع بمعطى سيكولوجي/ نفسي. وهذا المعطى يتجلى في الشخصية. فلن كان الشخص يحيل إلى المظهر، فإنّ الشخصية تحيل على البنیان النفسي الذي يميز كلّ شخص عن غيره؛ ليشكل الجانب الأصيل من أناه. فهل هذا البنیان النفسي خير؟

يقول فرويد، وفي قوله صفة للإنسان الحالم والمثالي: "ليس الإنسان بذلك الكائن الطيب السمع ذي القلب الظمان إلى الحبّ، والذي يقال عنه إنه يدافع عن نفسه حينما يهاجم، وإنّما هو على خلاف ذلك، كائن تدرج العدوانية لديه بالضرورة، وبقدر لا يستهان به، ضمن معطياته الغريزية".<sup>4</sup>

<sup>3</sup>- بحثت عن معنى الكلمة في القاموس اللاتيني الفرنسي فوجدت:

Persona (nom féminin):

- Masque
- (dans le monde théâtre) part, role, personnage.
- personne, personnage, individu.
- tat, condition, position. role. poste. rang.

<sup>4</sup>- انظر: سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت دار الطليعة، الطبعة الرابعة، 1996، ص 72

إذن، نفهم من رأي فرويد أنّ الإنسان كائن عدواني بطبعه، فالعدوانية معطى غريزي. والغريزة هي الطبيعة والقريحة والسجية، وهي طراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية.<sup>5</sup>

وأكثر من هذا، فإنّ فرويد يرى "أنّ الإنسان ينزع إلى تلبية حاجته العدوانية على حساب الآخر، وإلى استغلال عمله بدون تعويضه عنه، وإلى استعماله جنسياً بدون رضاه، وإلى الاستحواذ على ممتلكاته وإهانتها، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله".<sup>6</sup>

وترتيباً على هذا الرأي، يظهر لنا أنّ الإنسان يميل إلى العدوان؛ بمعنى أنّ الغير عدواني بطبعه، ويمكنني بالتالي أن أفترض أنّ العدوان أيضاً من طبيعتي.

## 2. العلاقة مع الغير:

إنّ علاقة الإنسان بغيره علاقة تأخذ توجهات متنوعة، فهي تظهر في بعض الأحيان على شكل صداقة، وفي أحيان أخرى على شكل خصومة وعدوان. وقد أشرت في القسم الأول إلى أنّ طبيعة الإنسان حسب فرويد هي طبيعة عدوانية. إذن، ما الذي يمكن أن أقوله في موضوع الصداقة بإيجاز قبل أن أعود لموضوع عدوانية الشخص والغير.

تُعرف الصداقة بأنها "علاقة اجتماعية وثيقة ودائمة، تقوم على تماثل الاتجاهات بصفة خاصة، وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة".<sup>7</sup> ولاننسى أنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وبالتالي فهو لا يستطيع بمفرده أن يحقق بنفسه كافة احتياجاته، لهذا فإنه يحتاج إلى الاجتماع بغيره.

ومن هنا، كانت الصداقة مثال من أمثلة الاجتماع ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان\*، غير أنّ الدوافع قد تظل مرتبطة بالمصلحة. فللصداقة وظائف نفسية واجتماعية مهمة، فهي تخفف مشاعر الوحدة وتدعم الإيجابية السارة، كما تسهم في التنشئة الاجتماعية.

وعلى العموم، تظلّ الصداقة طريقاً للعيش معاً.<sup>8</sup> غير أنه يجب ألا نغفل أمراً مهماً، وهو أننا لا نصادق الجميع؛ بمعنى أننا نخص بالصداقة أفراداً معيّنين، في حين يظل الآخرون غرباء وأغياراً. ويمكن أن نقول

<sup>5</sup> - المعجم الوسيط.

<sup>6</sup> - سيغmond فرويد، مرجع سابق.

<sup>7</sup> - أسامة سعد أبو سريع، الصداقة من منظور علم النفس، سلسلة عالم المعرفة، عدد 179، نوفمبر 1993، ص 27

\* - يقول محمد إقبال في بيت شعري إنساني جميل: لم ألق في هذا الوجود سعادة // كمودة الإنسان للإنسان.

<sup>8</sup> - عبد السلام بنعبد العالي، مقالة: الصداقة طريقاً إلى العيش معاً، مجلة الدوحة، عدد 75، يناير 2014، ص 101

إنّ شعباً قد يصادق بعضه بعضاً، وهنا يرى أرسطو أنّ الصداقة بين المواطنين هي أحد الشروط الأساسية لقيام الحياة الفاضلة داخل المدينة.<sup>9</sup> ولكنّ هؤلاء المواطنين قد يعتبرون شعباً آخر عدواً وغريباً، فينعتونه مثلاً "بالنصارى"، وقد يدخلون معه في حروب وعداوة تاريخية.

إذن، فإنّ الغير كما يمكن أن يكون صديقاً يمكن أن يكون عدواً، وقد يكون شعباً أو فرداً. ولكن ماذا عن عداوة الغير؟ أليس الإنسان ذنباً للإنسان كما يرى هوبز؟ وأليست العدوانية متجذرة في بنيته النفسية كما يذهب فرويد؟

في الحقيقة، من منا أمام كل ما علمنا إياه واقعنا في بلداننا المتخلفة يمكن أن يفند هذا الطرح؟ أليس هذا العدوان يتجلى في مجتمعاتنا بشكل واضح جلي؟ فمن المسؤول عن وضع الشباب العاطلين؟ أليس الغير؟ أليس من غريزته العدوانية أدت إلى إفساد البلد؟ أليس الغير هو الذي يسرق ويرتشي ويستغل نفوذه ويعرقل الإصلاح، لأنه لا يخدم مصالحه؟ أليس الغير هو ذلك الذي يحتكر المؤسسات الحزبية والاجتماعية؟ أليس هو الذي يعامل العاطل والثائر والمنتسب الجديد للحزب أو لجماعة معينة كغريب و ودخيل و عدو، فيعاديه ويقصيه، ويمنعه من الحصول على حقوقه الطبيعية والسياسية؟ أليست هذه العدوانية هي التي أدت إلى انفجار الثورات العربية، أليست هي ما يجعل أي مجتمع مهدد بالانهيار باستمرار؟ أليست هذه العدوانية هي التي تؤدي إلى الحروب الطاحنة التي لا مبرر لها سوى أن الإنسان ذنب للإنسان؟

بناءً على كل هذا، فإن الإنسان لا يمكنه أن يكون خيراً، بل يمكن أن نقول، وإن مارس أفعالاً خيرة، فإنه لا يمارسها إلا مرغماً، لعجزه عن ارتكاب الشر. وهنا نستحضر أقصوصة جيجيس التي أوردها أفلاطون، حيث يقول: "لنعط لإنسان عادل وآخر ظالم الحرية في فعل ما يروقهما، ولنر أين ستؤدي بكل واحد منهما أهواؤه، فيسوق أفلاطون حالة الراعي جيجيس الذي كان معروفاً في القرية بطيبته، والذي اكتشف فجأة أن تحريك خاتم في إصبعه يمنحه قدرة الاختفاء عن الأبصار ويجعله في منأى عن العقوبة، فقصد جيجيس قصر الملك فاغتاله ثم استولى على السلطة.<sup>10</sup> نفهم من هذه الأقصوصة أن لا أحد يكون خيراً إلا بالإكراه. فجيجيس كان راعياً بسيطاً لا يملك القوة، فهو كان عاجز عن الاستبداد والظلم\*. حين امتلك القوة ظهرت غريزته الحقيقية. فكم من جيجيس يوجد في أوطاننا؟ و كم من ثائر يريد إسقاط والزعيم، وكأن بسقوطه سيحل العدوان ويختفي، في حين أنه يريد إسقاطه ليحل محله؟

<sup>9</sup>- مرجع نفسه.

<sup>10</sup>- جمهورية أفلاطون، الجزء الثاني.

\* - للشاعر الجاهلي عمر بن أبي ربيعة بيت شعر في هذا المعنى، يقول: إتما العاجز من لا يستبد

### 3. الحرب المغربية السونغية نموذجاً لعدوانية الإنسان:

إن الحرب، أي حرب، سواء كانت عالمية أو أهلية، تعتبر دليلاً على عدوانية الإنسان، وفي أن هذا الأخير لا يقيم أي اعتبار لبني جنسه. وقد أشار فرويد إلى الحرب العالمية، لتعزيز فكرته عن النزعات العدوانية في الإنسان. وأنا هنا أخص بالذكر الحرب المغربية السونغية، لأنها تعيننا نحن المغاربة، ولأننا كنا فيها غزاة؛ أي أننا مارسنا العدوان على الآخر، كما مارس علينا ذلك الآخر الشمالي (فرنسا وإسبانيا) العدوان أثناء فترة الحماية.

نقرأ في كتب التاريخ أن السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي أرسل جيشاً بقيادة جودر باشا إلى أزواد بحثاً عن مناجم الذهب والملح والتبر التي تزخر بها الأراضي السونغية، فدارت معركة تونديبي، حيث استطاع المغاربة الانتصار، فسيطروا على المدينة.

وحين نقرأ أيضاً في كتب التاريخ عن هذه الحرب، نجد أن التاريخ مليء بالعبودية وبالوحشية، فقد تم مقايضة انسحاب المغاربة بالذهب وبالرقيق وبالمخصيين<sup>11</sup>، وقد كان الخصي أمراً عادياً في عصور الإمبراطوريتين العثمانية والمغربية، وهذا جانب من وحشية الإنسان مع أخيه، إلى جانب الرق والعبودية. ويشير هيجل إلى أن التاريخ مليء بالمآسي الإنسانية، فيقول: "ليس التاريخ مجالاً للغبطة. وفترات السعادة لا تمثل في التاريخ، إلا صفحات بيضاء". وبالفعل، فإن الشخص الذي يفتح كتاب التاريخ يكتشف مدى عدوانية لإنسان وشره. وحين نبحث عن الأسباب السياسية للحرب المغربية السونغية، نجد أن هذه الحرب شكلت فرصة للسلطان المغربي لإبعاد قاداته العسكريين عن البلاط، ولصرف طاقتهم الحربية بعيداً عن مملكته. هذه الطاقة التي لا يمكن أن نراها إلا كتعبير عن غريزة العدوان والتدمير، وإن كانت مزينة بمبررات واقعية أو مقدسة. ونفهم هنا أن هذا العدوان، إن لم يكن صرف في غزو خارجي، فقد كان ليصرف في حروب أهلية داخل الدولة<sup>12</sup>. ولهذا، فإن الكثير من الدول عبر التاريخ، كانت تشن حروباً خارجية من أجل توحيد شعوبها، و صرف الطاقة العدوانية لأفرادها.

والجدير بالذكر هنا، أن هوبز يرى أن الناس لا يستمتعون بالعيش داخل جماعة لا توجد فيها سلطة بوسعها أن تمنع أفرادها من ممارسة عدوان بعضهم على بعض<sup>13</sup>. وما يقال عن الأفراد، يقال عن الدول في علاقات

<sup>11</sup> - انظر: عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، الطبعة الثالثة 2006، ص 145 إلى 175

<sup>12</sup> - ذلك ما وقع بعد موت المنصور الذهبي، انظر: عبد الكريم كريم، مرجع نفسه، ص 328

<sup>13</sup> - انظر: توماس هوبز، اللفيثان، ترجمة: ديانا حبيب حرب، بشرى صعب، كلمة، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2011

\* - الأمم المتحدة منظمة عالمية ظهرت مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فوضعت ميثاقاً ملزماً لأعضائها، ويهدف هذا الميثاق إلى تعزيز السلام بين دول العالم.

بعضها مع بعض. ولعلّ الأمم المتحدة\* تمثل تلك السلطة التي تسعى إلى منع ممارسة العدوان بين الدول، كما تسعى الأنظمة داخل كل دولة إلى منع الصراع بين أفرادها. فلولا هذه السلطة إذن، لما توقف العدوان.

وعلى هذا النحو، فإن الإنسان سواءً كان شخصاً أو غيراً فهو جسيم، لأنه أناني وعدواني بطبعه كما يشير فرويد. وأنا بطبعي عدواني، فالغير كما قدمت هو أنا آخر. فما ينطبق عليه ينطبق عليّ، والعكس صحيح. ولكن ما العمل للحد من عدوانية الغير جماعة كان أو فرداً؟ وألا يمكن أن يكون الإنسان طيباً؟ ألا يمكن أن نراهن على النية الطيبة للإنسان؟

وحول طبيعة الإنسان، يرى جون جاك روسو أن الإنسان طيب بفطرته، ولكن المجتمع أفسده. فالإنسان حسب روسو كان يعيش أياماً هادئة بريئة، ولكن المجتمع جعله طاغية لنفسه وللطبيعة.<sup>14</sup> وأما كانط فينشد إنساناً طيباً وأخلاقياً أشبه بالأمير ميشيكن في رواية ديستوفسكي\*؛ فكانط يطلب منك أن تكون مؤمناً بأخلاق المسيح في مجتمع فقد إيمانه، رغم معرفته بأن الأخلاق تسير ضدّ الطبيعة، في حين أنّ هدف الإنسان العاقل ليس هو السير ضدّ الطبيعة، بل احتواؤها والسيطرة عليها. فكيف يمكن السيطرة على عدوانية الغير المغروسة فيه؟

## خاتمة:

يمكن السيطرة على النزعات العدوانية التي تشكل البنية النفسية للإنسان بالتربية على بعض القيم والمثل (التربية الصوفية مثلاً)، ويمكن ذلك بفسح المجال أمام علم النفس، حتى يجد الحلول المناسبة. وهنا يشير ماسلو إلى أن "موقع علماء النفس في عالم اليوم من أهم المواقع وأحسمها على الإطلاق. ويؤكد هذا، لأن كل المعضلات التي تواجه البشرية اليوم من حرب وسلام ونظام وفوضى، واستغلال وتآخ، وفهم وسوء فهم، وسعادة وشقاء، وحب وكراهية، جميعها يكمن حلها في ضوء فهم الطبيعة البشرية فهماً جيداً. وإلى هذا الهدف تنتجه وظيفة علم النفس بكامله و بذاته".<sup>15</sup> وعلاوة على ذلك، فإن وضع التدابير الوقائية مسألة ضرورية لإنقاذ الإنسان من نفسه أولاً، ولإنقاذه من ظلمه للغير ثانياً. وأعني بالتدابير الوقائية هنا وجود المؤسسات التي تمنع الإنسان من فعل الشر. فوجود الأحزاب السياسية مثلاً يقلل من عدوانية الزعيم المستبد، ويقظة المجتمع المدني

<sup>14</sup>- ج. ج. روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة: بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1972، ص ص 50-51

\* - كان يطلق على الأمير ميشيكن لقب: الأبله، وهي الكلمة التي وضعها ديستوفسكي عنواناً لرائعته التي يصف فيها شاباً صادقاً وطيباً يعيش بأخلاق المسيح في مجتمع فقد إيمانه.

<sup>15</sup>- انظر: عبد الستار ابراهيم، العلاج النفسي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، عدد 27، مارس 1980، ص 5



ووسائل الإعلام أيضاً تسهم في التقليل من عدوانية الغير، سواء كان فرداً أو جماعة. وكذلك، فإن منح سلطة قويّة للأمم المتحدة، بعد حل المشكلات السياسية والتاريخية للدول، قد يقلل من الحروب بين الشعوب.

### المراجع والمصادر:

#### \*- المعاجم اللغوية:

- 1- المعجم الوسيط
- 2- المعجم المحيط
- 3- المعجم اللاتيني الفرنسي

#### \*- المؤلفات:

- 4- J.P. Sartre, l'etre et le néant, Gallimar, 1943
- 5- سيغmond فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت دار الطليعة، الطبعة الرابعة، 1996
- 6- أسامة سعد أبو سريع، الصداقة من منظور علم النفس، سلسلة عالم المعرفة، عدد 179، نونبر 1993
- 7- جمهورية أفلاطون، الكتاب الثاني، ترجمة: د. فؤاد زكريا، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، 2004
- 8- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، المملكة المغربية، الطبعة الثالثة، 2006
- 9- توماس هوبز، اللفيثان، ترجمة: ديانا حبيب حرب، بشرى صعب، كلمة، دار الفارابي، الطبعة الأولى، 2011
- 10- ج. ج. روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة: بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت 1972
- 11- عبد الستار ابراهيم، العلاج النفسي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، عدد 27، مارس 1980



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com